صلاة الاستسقاء

حشا ذاكرتهم ببعض العبارات، و أقنعهم بآيات قرآنية، ثم تَقَدَّمَ الحشدَ نحو المصلى. تبعوا خطواته في صمت رهيب، وبين الفينة والأخرى يسمعون صيحات الأطفال وصرخاتهم. يلتفت بعضهم تلقاء الصغار بنظرات تحمل النذير، ورسالات مضمرة بأن لهم العذاب الأليم بعد صلاة الاستسقاء.

خرجوا وأشعة الشمس تحرق أجسادهم المعطوبة. زرع القحط، والجفاف، الرعب في نفوس الفلاحين الصغار. الكل فاتح فمه ملء شدقيه لعل السماء تجود بغيمة تُذهب الغم ورفيقه الحَزَن عن الوجوه. فكر "أسي عزيز" في حقوله التي تشبه رقعة شطرنج: "سنفقد المحصول إذا لم تجد علينا السماء".

مر "البوهالي"، بمحاذاة الحشد، مستهزئا من خروجهم. إنه رجل علم وورع وتقوى. جن بعدما زوجوا حبيبته لشخص غني خارج القرية، فصار حلمه الوحيد أن تعود يوما ما، ويظفر بلقائها. لكنه، اليوم، بعد أن فقد صوابه يلقب بالبوهالي. ورغم ذلك، فهو من أعقل عقلاء القرية.

قال البوهالي هازئا: "أنتم لا تذكرون الله حتى تعصروا مثلما يعصر أسي عزيز الزيتون ليصير زيتا".

ينظرون إليه نظرات عدائية، لكنه يصر أن يكمل خطابه: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، ثمّ أردَفَ الجملةَ: "قرآن كريم"، ليعزز استشهاده.

وصل الحشد إلى المصلى، تراصوا في صفوف، ورفعت ابتهالات وأدعية، و أقيمت الصلاة، ودخل الجميع في حالة نحيب وبكاء وخشوع مستفيض.

ها هي ذي غيمة، غيمتان، ثلاث...يتقن الإمامُ القراءةَ، ثم يردف كل سورة بأدعية. يردد المصلون "آمين". تنفرج السماء، دون أن تجود بقطرة واحدة. يفقد الجمع الخشوع، والأمل، ويفكر "أسي عزيز" في حقله. ثم تنتشر العدوى بينهم؛ كل يفكر في حقله، وما من أحد يفكر في حقله جاره.

ينطق البوهالي: ألم أقل لكم إن "الإيمان بضع وسبعون شعبة" وليس شعبة واحدة. ثم أردف الكلام: "حديث شريف". ألم أقل لكم إن التردد على المسجد كأنكم تؤدون واجبا لا يكفي كي نعيش. ألم أقل لكم لا تزوجوا حبيبتي لذلك "البراني"؟

يضيق صدر الفقيه ومن معه، ينهي الصلاة، وينصرف الجمع في صمت وذهول. ينبه "أسي عزيز" بعض أصدقائه أنهم لم يعلنوا في نشرة الطقس أن السماء ستمطر اليوم. فكيف تمطر؟!

سوّغ آخر معلقا: "صدقت، حتى المساجد الأخرى لم تقم فيها صلاة الاستسقاء".

يبتعد الجميع، لكن تصرفات البوهالي تثيرهم من بعيد. يفتح كيسا لا يفارق ظهره، يخرج منه خبزا حافيا جافا، يوزعه في المصلى، يأتي بمياه، ويوزعها في علب يحملها، يراقبه الناس، تخرج النسوة من دورهن، ثم يقتربون نحو المصلى دون أن يربكوه. يرفع يديه إلى السماء، وينادي الطير، والكلاب، والقطط، والضفادع، والجراد، والقمل...

يقيم الصلاة، ويشرع في القراءة. تخرج مخلوقات معروفة وأخرى غريبة لم يرها الناس من قبل: "صلوا يا أبنائي. صلوا ولا تملوا. صلوا وادعوا ربي وربكم. صلوا فإن الله يسمع دعاء كل دابة، صلوا "فما من دابة إلا على الله رزقها". صلوا فإن الذي رزقكم يرزقهم، والذي رزقهم يرزقكم". أنهى البوهالي الصلاة، وسقط المطر.